الأب الجديد

لـ: إيمان بونقطة

obeikandl.com

دار الزنبقة

كل الحقوق محفوظة

zanpaka.com
00213 665016195
younes2kc@gmail.com

حقوق المؤلفة الأدبية والفكرية محفوظة

رقم التسجيل : 2982/2010
بالديوان الوطني لحقوق المؤلف والحقوق المجاورة

الاصدار الإلكتروني لدار الزنبقة للنشر الإلكتروني الحر
سبتمبر 2014

obeikandl.com

عاد ذلك الغائب بعد سنين السفر الطويل التي أنهكت قوته ومحت عزيمته وأبكرت شيبته منبئة بكم التعب والنصب الذي لاقاه في غربته ، ورسمت على وجهه إلتواءات الزمن وصعوبة الدهر ، وانثنت في يديه متاعب الجد الذي لم يصنع شيئا ولم يغزل حاضرا أو مستقبلا حين ودع الماضي بكل ما يحويه من ذكريات وآمال وأحلام لم تصنعها غربته بعد أن خسر كل تجارته وارتفع حساب ضرائبه وديونه ، فلم يجد بُدا من بقائه فيها بعد أن تجرع من بؤس الدهر الذي لم يترك سهما من سهامه إلا وأصابه به ، فقسم ظهره وأضعف إرادته واقنع نفسه أنه وُلِد ليعيش بائسا محروما من كل ما يغتنمه سكان الحياة من عيش وبيت وزوجة وأولاد وعمل يتقنه فيزهد به عن كل ما يصبو إليه غيره من الرفاهية والرغد .

عاد قاصدا بيت عائلته القديم، ظنا منه أنه لازال قائما على حاله حيث كانت جدرانه ملونة بألوان البهجة والسرور التي غمرت قلبه لفترة من الدهر وحيث كان عبق الزهور يعطر أجواءه ونسيم الوطن ينسيه ابتلاءه .

عاد من بعد غيبة ينتظر استقبال الأحباء، ومعانقة الأشقاء ،واشتياق الخلان والرفقاء. فلم يجد إلا سكون الوحدة، وصمت الحياة بين جدران هذا المنزل العتيق.
خطى خطوات يتلوها صدى البيت الوحيد الذي تلونت في كل أنحاءه العزلة والوحدة والاشتياق إلى صوت البشر.

جلس هنالك في زاوية غرفته الصغيرة، فتذكر الماضي وأيام الطفولة ، تذكر ذلك الصوت الحنون الذي يوقظه كل صباح وتلك اليد الرحيمة التي كانت تمسح آلامه

obeikandl.com

وترسم معه أحلامه وآماله وغده الذي كان يتوقعه بحرا زاخرا بالدر والجوهر لا سيلا عارما بالألم المر ، تذكر صوت أمه التي لطالما أخبرته أن للدهر لثاما مسبلا لا يكشفه للمتشوقين إليه ولكنه يغرس في نفوسهم طمعا لأن يكتشفوه بأنفسهم ، فلا يزالون يركضون ورائه بأحلامهم حتى يكتشفو أن قطار الحياة قد أسرع وفات ولم يكتشفو بعد مالذي يخبئه الدهر لهم حتى يوارو الثرى .

تذكر درجه الذي يحمي مذكراته ومخططاته فتوجه إليه فوجده مليئا بغبار الزمن الذي محى سطوره وصفحاته ولم يبقى منها إلا الأحلام المختبئة وراء ضباب الأيام وماضيها .

تذكر هناك على شجرة المشمش بالحديقة التي غدت قفرا موحشا أرجوحة محمد الصغير، تذكر ضجيجها وضحكات أخوه المبتهجة المتناثرة في أجواء جنته .

جلس يطوي صفحات الماضي صفحة صفحة، فيقرأ في إحداها أيام سعادته مع أخيه الذي كان يعطف عليه عطف الأب الذي فقده ،ويقرأ في الثانية الأيام البائسة التي مرّت عليه وعائلته الفقيرة حين كانت الحاجة سببا في موت والده ، تذكر ذلك اليوم الذي جرى فيه لاهثا يبحث عن الدواء لوالده وهو لا يملك نقودا ليجلبه ، فلم يجد يمينا تغيثه ولا وجها يرسم له عطفا وان لم يمنحه خيرا ولا شرا ولا سامعا لاستغاثته .

تذكر أن الحاجة هي سبب في فراقه عن أمه التي نذرت حياتها له ولأخيه وماتت في سبيل تربيتهما.

وفجأة استيقظ من كابوس تفكيره بالماضي على صوت قنديل قديم سقط من أعلى السقف، اهتز الرجل شوقا للماضي الحزين، وبدا نحيبه بين جدران الغرفة المهجورة.

أدرك في لحظة أنه قد خسر كل شيء، لا هو بقي مع أخيه يقاسمه سعادة الدنيا وبؤسها، ولا عاد من هجرته بما يحفظ له حاجة أيامه الباقية .

أخرج يده من جيبه وجعل يعد أصابعه عدد سنين الهجر، وهو يحدث نفسه: مرت ثلاثون عاما من عمري كما مرّ وقت عدّها بأصابعي خسرت فيها كلّ ما يجعلني أمسك بآخر خيط من خيوط الدنيا.
لم يجد الرجل خاطرا يدور في باله إلاّ أن يرد يده إلى جيبه ويرسل برجليه إلى حيث تقودانه.

جعل يمشي تائها في الشوارع التي لطالما خطاها من قبل بقوة أمله وتفائله وهو يتذكر كل زواياها وبيوتها ومزارعها وأناسها ، وذلك البيت المقابل لشجرة الزيتون التي كان يستظل فيها غارقا مع كتابة مذكراته لا ينقذه من غرقه إلا طيف جميل يطل من نافذة البيت ، طيف حبيبته التي كانت تمنح ارادته قوة ليحقق ما انتظرته طويلا منه ولم يحققه حيث هو في المزارع والحقول ، كان أجمل ما كتبه في مذكراته عنها وعن وجده بها وكيف كانت تقاسمه هذا الحب وتنتظر أن يلبي طلب أبيها المرفه بأن يحصل على مكانته وجدارته بين الناس قبل أن يحصل على ابنته ، وأن هذا هو سبب هجرته التي تلقى فيها بعد سنتين خبر زواج محبوبته الذي حطم فؤاده وأفتر قواه وأحبط عزيمته فخسر كل ما حققه لسنتين وهام على وجهه في غربته حيث لا أحد يسمع شكواه ولا أحد يفجع لفجيعته ويكفكف عبراته أو يهتم لأنينه ،

وظل على ذلك ملتحفا الحزن الذي أطفأ حرارة قلبه ورفع عن عينيه لذة نومه وأشد عليه وحشته وأذهب أنسه حتى نسي نفسه ومن يكون وظل على ذلك أمدا ثم رجع إلى تجارته بنفس ثقيلة أشغلته سنين هجره إلى أن أردته مفلسا .

أفاق من ذكرياته الأليمة ومسح دموعه ووجه بصره إلى السماء الواسعة النقية حيث الرحب والسعة لهمومه التي لم تتذوق صدرا رحبا من قبل فأحس براحة وطمأنينة نسي طعمها لفترة طويلة من الزمن وقرر أن يعيش ما بقي من عمره حياة جديدة في وطنه يترك رسم معالمها لربه فمضى يبحث ويسأل عن عمل بسيط يقيته ، فإذا جاء الليل، انحنى بزاوية من الشارع يذيق جفونه شيئا من الرّاحة هربا من ذكريات ذلك البيت المهجور، فان صاح ديك الفجر حمل نفسه إلى المسجد ليصلي صلاته

ويستنجد بربه محاولا أن يفهم رسائله إليه، متحسرا على ما فرط من عمره، ويكمل يومه بين الناس يقضي لهم بعض الحاجات مقابل ثمن بخس دراهم معدودة تقيه شر الجوع وذل المسألة.

سار بأمل أن يدرك ريحا تركه أخوه الذي لا يعلم عنه شيئا منذ تركه شابا صغيرا لا يعرف إلا طريق مدرسته ولا يحمل بين يديه إلا كتبه ودفاتره ويتسائل عن شكله الذي لم يتذكر منه الكثير.

تتقلب رجلاه الضعيفتان بين أنحاء المدينة ، وحين ينال منه التعب يجلس إلى كرسي على طرف الطريق يتذكر ويتحسر على ما فات ويتأمل في بني البشر، يتساءل بعينيه الحزينتين عن حال كل الناس، ويأمل لو يعيد

الماضي طياته عله يقدم لحياته وللناس ما يجعله سعيدا مقدرا لنفسه.

تارة يكسبه الأمل من بريق شعاعه أن القادم أجمل وأنه آن الأوان للدهر أن يفتح له ذراعيه ويكشف له ماستره طوال عمره فكان يتفائل ويسعد بهذا الأمل سعادة كبيرة ، وتارة أخرى يجن عليه الظلام بأفكار توحي بأن حياته قد ضاعت وانتهت، وأن ما أحس به مجرد خداع زائف غامره طيلة حياته ، وبين هذا وذاك اقتنع أن الغيب باب الله الذي لا يعرف أحد ما وراءه وأن الملجأ إليه، فرفع يديه داعيا : "ربّاه إني قد توجهت إليك نادما تائبا وأنت تعلم أني بائس لا سند لي ولا عضد وقد وجدت من ظنك العيش وضيق الحال وبعد المنال ما وجدت ولم أجد سبيلا يقودني إلى باب من ابواب رزقك وكرمك فإني أرجوك أن ترزقني عملا أستعين به على متاعب

الدنيا ومشاقها وخيرا أقدر به نفسي و أجد فيه آخرتي "

وضم يديه إلى صدره بعد أن كفكف دموعه ورفع طرفه فإذا به يشاهد صبيا يظهر عليه البؤس والشقاء من خلال ما يحتلسه من ثياب مرقعة ووجه حزين يجر عربة قديمة بداخلها كومة من الأشياء البالية التي يظهر عليها الغبار كأنما لونت به ،تحوي أشياء قديمة لا يرجى منها رجاء ولا ينتفع بها ، وفجأة رأى مجموعة من الصبية الذين ظهر على أعينهم القساوة والمكر، وسمع همسات كلام توحي بأنهم يطلبون منه شيئا فصرخ الصبي قائلا: ابتعدوا عني لا أملك شيئا.

انهال الصبية على الصبي يفتشونه ويضربونه وهو يصرخ ويستنجد ، فاسرع لإغاثته وصار يبعدهم عن الصغير المتألم ثم تقدم إليه وهو يمسك بوجهه " هل أنت بخير ؟ "

، فلم يجد الصبي الصغير ما يعبر به عن امتنانه للرجل إلا بتقبيل جبهته والتودد إليه بالشكر" أشكرك يا سيدي على انقاذك لي " ثم توجه لعربته يحاول دفعها ليكمل مسيرته .

تقدم الرجل وحمل بذراعيه الضعيفتين التي أكل من قوتها الزمن ركنا من محمل العربة ، وجرها برفقة الصبي ، وهو ينظر إليه ويتأمل في بؤسه ، والصبي يقابله بنفس النظرات وكل منهما يتسائل عن ما بنفس الآخر ..

توقف الصبي وسأله متعجبا :" مالِ أراك تحمل معي ما لا تستطيع عليه وقد بلغت من الكبر عتيا " .

opeikandi.com

ضحك الرجل البائس ضحكة بلغ صداها عنان السماء ثم سكت لحظة ونظر إليه : " إني أريد أن أختبر قوتي أمامك ، أتريد أن تعرف مدى قوتي "

ترك الصبي الركن الذي يمسكه وهو يتوجه إلى الوراء وانحني بظهره فاتحا ذراعيه " يسرني ذلك سيدي ! "
ضحك الرجل بملء فمه كأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها، وصار يجر العربة ويركض والصبي يلحق به ويوجهه إلى الطريق المتوجه إليه حتى أنهكت قواه فتوقف وألقى بنفسه على الأرض وهو يلهث : " لم تكن متعبة ولكن الطريق طويل "

ضحك الصبي وألقى بنفسه أمام الرجل : "مالذي يدعوك لمساعدتي ، أنت لا تعرفني "

obeikandl.com

ثم نهض جالسا " أم أنك تشفق علي لثيابي الرثة التي تراها ! ، على كل لم يشفق علي أحد قبلك "
ضحك الرجل ونظر إليه قائلا " أنى أولى بالإشفاق على نفسي منك "

انتفض الولد واقفا " هل تطمع في أن تأخذ أجرا على مساعدتك لي ، ما عندي لا يكفيني حتى لكي أطعم نفسي وأختي فهلا تتركني رجاءا"
سأله الرجل " هل أنت يتيم ؟"
جلس الصبي من جديد موحيا برأسه أن نعم .

أدرك الرجل أن الصبي له أخت صغرى يعولها ولا أحد يساعدهما ، فكتم فرحته وحزنه عليه في رحاب قلبه المهموم : فرحه لأنه أحس بأنه قد وجد باب الخير

الذي كان يسأله ربه إن كفلهما بحنانه وعطفه وساعدهما .

وحزنه على الصبي المسكين وحالته التي يرثي لأجلها متعجبا : ألا يوجد من يعطف على يتيمين بائسين في هذه الدنيا ، أخلت من الرحماء ؟ ألا يوجد من لا يسمح لنفسه أن يذوق اللقمة حتى يذوقها يتيم يمر بجانبه أو يمسح حذاءه ؟"

فقاطعه عن حسرته الصبي وقال له:" ماهي قصتك يا سيدي ، تبدو غريبا هنا"

تنهد الرجل تنهيدة عميقة اخرج فيها كل أثقال همومه وأحزانه ورد عليه : "بل أنا ابن هذه البلد ، ولدت فيها وترعرعت فيها حتى اشتد عودي فسافرت إلى بلد آخر آملا أن أجد فيه ما لم أجده هنا ، ولكني كنت مخطئا ، شغلت حياتي بالتجارة والبيع حتى نسيت نفسي وأرهقتها وانتهى بي المطاف لأن اخسر كل ما لدي

وأفلست بسبب ازدياد الضرائب علي ، حجزو على كل ممتلكاتي وأعادوني لوطني صفر اليدين لا أمتلك إلى روحي التي بين جنبي وما ألبسه الآن "

أطرق الصبي رأسه حزينا على قصة الرجل وهم بسؤاله من جديد ، ولكن الرجل أجاب قبل أن يطرح ما بسريرة نفسه : " تتسائل عن حالي الآن وقد أن عدت إلى وطني بعد ثلاثين عاما من الهجرة " ضحك الرجل وهو يقلب كفيه على خلوهما من كل ما يبعث روح الأمل في صاحبهما : " فقدت أخي ، وفقدت البيت الذي رأيت فيه أحلام طفولتي ، وها أنا الآن هائم على وجهي أفترش الأرض وألتحف السماء "

مسك الصبي يده وقربها منه : " أنا وأختي نعيش في كوخ بسيط بإمكانك أن تعيش معنا "

ابتسم الرجل : " ما اسمك ؟ "

ردد الصبي قائلا :" إسمي رامي ولي أخت اسمها وفاء ، كنا نعيش في مدينة أخرى لا أذكر اسمها ولكني أذكر والداي جيدا فقد كانا يحباننا حبا جما ، وكنا نعيش في سعادة وهناء حتى جاء اليوم الذي فقدنا فيه أعز ما نملك "

مسك رامي رأسه بيديه الصغيرتين كأنما يحاول أن يعصر ذكرى لا يكاد يذكر منها شيئا ، اقترب منه الرجل " أكمل يا رامي ماذا حدث بعدها ؟ "

قال رامي :" لا أستطيع تذكر الكثير ، ولكننا كنا مسافرين في سفينة غرقت ونجوت أنا و وفاء وأمي حيث كنا في قارب نجدة من بين كثير لم يصلو كلهم إلى مرفأ الأمان وغرق ابي ، ولم تلبث أمي أن لحقته بعد أسابيع بسبب مرض أصاب رئتيها و ماتت بعد أن تركت وصية لجارة لنا لا نعلم منها شيء ، ولكننا عشنا معها لمدة من الزمن نخدمها ونلبي طلباتها التي لا تقدر

عليها أجسامنا الضعيفة مقابل الطعام الذي نقتاته منها ومبيتنا عندها "

وقف رامي بقوة وهو يشد على يديه كالبطل المنتصر في معركته : " ولكنني لم أقبل الرضوخ طويلا وهربت أنا و وفاء إلى هنا حيث وجدنا كوخا مهجورا سكناه وصرت أعمل وأكسب قوت يومي وأختي بعملنا "

وقف الرجل المعجب بحماسة رامي : " أحسنت صنعا يا رامي "

ابتسم رامي للرجل قائلا : " ولكني سعيد جدا اليوم لأنني وجدت شخصا يعطف علي ويدرك حالي ، دائما ما كنت أجر عربتي لوحدي "

رد له الرجل الابتسامة قائلا :" إنما أدرك حالك لأنني مررت به وأدرك فقرك وحاجتك لأنني الآن به، أما عن

حملي لعربتك فلأني أريد صداقتك فهل لك أن تقبلني صديقا؟ "

تعجب الصبي منه وقال:" ولم تصادق صبيا يتيما لا يجد من يعوله ويعتني به ؟ "
أمسك الرجل بيدي الصبي الصغيرتين بحنان مرددا : " لأعولك وأعتني بك .. صحيح أنني فقير لا أملك شيئا وعجوز لا أحتمل قسوة الحياة ولكني أحس بك لأني ذقت مرارة اليتم والبؤس من قبل ، فما رأيك أن نتقاسم معا أكباد الحياة وأكون لك أبا وصاحبا ورفيقا. وما نجنيه معا خير من أن يتحمل كلّ واحد منا ألم الوحدة وقسوة الذلّ وحده ".

ابتسم الصبي فرحا وسأله : " هل ستأتي معي ؟"
أجابه : " أجل سأفعل "

نظر إليه الصبي بعينين دافئتين وقال : " انك تذكرني بأبي غير أنك لا تشبهه !"

فضحك الرجل الذي لم يتذوق حلاوة الضحك منذ زمن بعيد من براءة الصبي التي تختبئ بين ملامح العزيمة والقوة .

وانطلقا يمشيان ويتبادلان أطراف الحديث إلى أن سحبت الشمس آخر خصلة من شعرها الوهاج، فتذكر رامي أخته وصاح صيحة المفزوع من شيء رهيب..فقال له الرجل : " مابك قد كنا نتكلم ونضحك فماذا جرى لك؟ "

أمسك الصبي بيد الرجل واتجه نحو كوخه مسرعا ، وكم كانت فرحته حين وجد أخته نائمة، لأنه لم يكسب من عمل يومه ما يسد جوعها، فدخل والرجل إلى

الكوخ ببطء على أطراف قدميهما، طرح الصبي فراشا باليا يسعهما معا، وتمددا فيه والفرحة بادية على قسمات وجهيهما ..

فرحة اليتيم أن وجد أبا يحن عليه ويفهم خرابيش أفكاره، أما فرحة الرجل فلا يعطيها لأحد من العالمين ، لأنه وجد أولادا لم ينجبهم بعد أن مرت به سنين من الوحدة والشقاء فأحس في هذه اللحظة أن الحياة عادت إلى نفسه من جديد وأزهرت البهجة فيها فحمد الله على ذلك وجعل يخاطب ربه قائلا:" الحمد لك يا من استجبت لدعوتي وجبرت خاطري ،حمدا لك على كل نعمك ، يا من جاد عليَّ بأفضل نعمه ، بعد ألم الوحدة وحسرة الحياة أجد ما ينسيني ماضيَّ المرير ويبعث بنور يعطيني أملا في الحياة من جديد".

انطبقت جفون الرجل البائس على حمد الاله ،ونام كنوم الطفل الرضيع ، وما إن أتي الصباح حتى استيقظ على صوت الطفلة الصغيرة وهي توقظ أخاها بخوف، وتنظر إليه نظرات ملؤها التعجب من وجود هذا الرجل الغريب بينهم ، استيقظ رامي وأطلق بذراعيه المتهللتين بين أرجاء الكوخ الصغير ثم أخذ بيد أخته الصغيرة قائلا لها : " هذا هو الأب الجديد لنا يا وفاء ".

ابتسمت الصغيرة في وجه الرجل ابتسامة من يظهر في وجهه الاطمئنان ، وباطنه يملؤه الخوف .

تقرب منها الأب الجديد وضمها بحنان إليه، يحاول أن ينزع من قلبها الصغير ما يجعلها تفزع منه ، فلم تجد الصغيرة إلا أن تستلقي على صدر أبيها الجديد بعد أن

اطمأنت وزال خوفها منه ، وبدأ حديث التعارف بينهما يأخذ قلبيهما في حين جهز رامي عربته ليستعد ليوم جديد كله تعب وشقاء ونهايته رغيف خبز يسُّد جوع العائلة الصغيرة فتوجه إلى المدينة .

وحمل الأب الجديد ابنته الجائعة على ظهره موليا وجهه إلى حيث اعتاد أن يأكل ما تبقى من طعام في مطعم بجانب سوق المدينة .

يملأ أوقات يومه بمسح طاولات المطعم وتنظيف الأواني .وتجلس الصغيرة بجانبه تحمل باقة من الزهور لعلها تحصل ببيعها على دنانير قليلة .
و قد حصلت عليها من أحد الكرماء الذي ألقي بتلك الباقة في الطريق ليمر بها عامة الناس ، و حملها

أحد المحترمين من الطريق ليلقى بها في كيس القمامة الموضوع على جانب الطريق.

ضمت الصغيرة حزنها على باقة الزهور التي كانت منذ برهة مشرقة بألوانها الجميلة ، ولكن النقود التي حصلت عليها مقابلها أسعدتها فركضت متجهة إلى أبيها الجديد تريه ما حصلت عليه من النقود.
وضعتها بيديه فابتسم لها وأمسك بيديها الصغيرتين ليضع فيهما نقودها وقال لها:" أحسنت يا وفاء حين حصلت عليها ومكافأتك سوف تشترينها بنفسك ".

أسرعت الصغيرة متجهة إلى المحل المقابل للمطعم ، تنظر بين أصناف الحلوى الشهية التي لم تتذوقها منذ مدة طويلة ، وتطلب ما تشتريه نقودها القليلة بفرحة تملأ عينيها البريئتين .

obeikandl.com

نظراليها البائع بشفقة واستاء لحالها وانزعج عندما رأى ثيابها المرقعة،فعظم عطفه عليها وهزت الرحمة كيانه ، فأعطاها حبة حلوى أخرى بدون مقابل.
أمسكتها وفاء وخرجت من المحل واضعة تلك الحلوى المجانية أمام باب المحل.

وحملت تلك السكاكر التي اشترتها ووضعتها على طرف ثوبها، لتتقاسمها مع أبيها الجديد بفرحة ووضعت بجيبها نصيبا من القسمة لأخيها .

جلست بجانب الطريق تتلذذ بحبة الحلوى ، وتداعب قطة صغيرة إلى أن ينتهي وقت عمل أبيها الجديد.

أطلق الليل عنانه ، وخلى السوق من الناس، وانتهى الأب من عمله فهَّم أن يجلس بجانبها ينتظر رامي ولكنه

رآه يركض متجها إلى أخته ليريها هدية يخبئها بداخل منديل ، واخبر أباه الجديد بأنه حصل على عمل عند نجار محله قريب من كوخهم الصغير،
فانتشرت الفرحة على وجهيهما.

فتحت الصغيرة المنديل فوجدت فيه حبات حلوى ، ضحكت ضحكة بريئة ،ثم مدت يدها إلى جيبها وأخرجت نصيب أخيها من الحلوى التي اشترتها ، فضحك الجميع فرحين سعداء بهذا اليوم الجميل .

حمل الأب الجديد نصيبه من صاحب المطعم بعد أن أكل الثلاثة مما تبقى منه، وانطلقوا إلى كوخهم الصغير فرحين بما تحصلوا عليه من نقود اليوم .

obeikandl.com

قرروا جمع ما يتبقى من نقودهم حتى يحصلوا على مبلغ من المال يجدونه وقت الحاجة والضرورة ، أويصلحوا به أحوالهم شيئا فشيئا ، فكانت أحلامهم بغدٍ أفضل تبعث فيهم الروح الجديـدة على استقبال الحياة.

مرت أيام العائلة الصغيرة ، وازداد حبهم وترابطهم ببعضهم و أصبح إحساس اليتيمين بأن الرجل هو أبوهم الجديد إحساسا قويا لا يفارقهم ، وزاح عن قلوبهم شعورهم باليتم ، فكان حنانه عليهم الوقود الذي يقوِّى به عزيمتهم على الحياة.

امتلأ كيس نقودهم بمبلغ بسيط يكفي لأن يشتروا أغطية تقيهم برد الشتاء القادم ،فأصَّر رامي أن يشتري بنفسه الأغطية ، وخرج من البيت بعد موافقة أبيه

obeikandl.com

،حالما بالدفء الذي سيناله لشتاء هذا العام وجعل يعد النقود بين الفينة والأخرى متجها إلى السوق.

تارة يفتح الكيس ليتأكد من سلامة المبلغ ، وتارة يخفيه بين ملابسه حتى لا تصله يد ذلك المترقب من بعيد، يسرع الصبي في مشيه ونيته الهروب والاختباء عن نظر هذا الذي شك بأنه لص ، حتى جمع جسمه النحيف وراء عربة أحد بائعي الخضر، وأخرج كيس النقود وجعل يتفحص ويعد المبلغ، حتى اطمأن في نفسه أنَّ السارق قد ذهب وابتعد، فخرج فرحا حالما من جديد.

وماهي إلا ثوان حتى أدركته يد خاطفة جعلت أحلامه تتلاشى بين عينيه ، فجعل يركض علَّه يلحق بالسارق ويعيد كيس أحلامه وأحلام عائلته بالدفء ، ويصرخ أمام العامة من الناس ليمسكه أحدهم ، فما كان منهم

إلا أن انزاح للِّص كل من يراه متجها في طريقه ، ولم يبادر أحد للامساك به.

فلما استيأس رامي جلس يبكي على موت أحلامه، و يفكر في طريقة لاسترجاع نقوده .
فتذكر أنه يمكنه استرجاع نقوده إن هو أبلغ الشرطة .

ذهب راكضا مستنجدا ليبلغ عن ما حلَّ به فأجابه الشرطي بحزم وثقة: " ثق أيها الصغير أننا عندما نجد السارق ستصلك نقودك ، وسنعاقبه بالتأكيد".

فأدرك رامي أن نقوده قد ضاعت وضاعت معها أحلامه كما ضاع السارق ولم يبق له أثر يجعله يأمل في استرجاع نقوده ، وعاد إلى كوخ عائلته الصغير حزينا متأسفا على ما حلَّ به ، تتوالى عبراته على وجنتيه ،

obeikandl.com

يفكر بما سيحل بأخته وأبيه الجديد من حزن على ضياع النقود.

دخل إلى المنزل مطئطئا رأسه حزينا اتجهت إليه وفاء بعد أن اختفت ابتسامتها الفرحة بقدومه ، فلما أخبرهما بالأمر جعلت تبكي وتلومه أشد اللوم بعد أن حطَّم أحلامها بمطرقة استهتاره كما تظن ، فما زادته إلا حزنا إلى حزنه الذي نخر باله وأضعف جسمه وأبعد عن عينيه لذة النوم .

أما الأب الجديد فحاول أن يبعث الأمل في أبنائه قائلا : " لا تحزنوا يا أولاد فكما جمعنا هذه النقود من كَدِّنا وعملنا بإمكاننا جمع أكثر من المبلغ الأول".

فأعاد البسمة إلى وجهيهما البريئين ، إلا أن الصبي لا زال يحس بالذنب ويتحسر على ما سرق منه ، ولم يذق طعم النوم طول ذلك الليل البهيم.

استيقظ الأب الجديد صباحا وهَمَّ بإيقاظ ابنه الصغير فوجده جالسا جلسة التحسر التي تركه عليها ، فخاطبه قائلا: " لماذا الحسرة يا بني على أمر قد كتب؟ إن كنت تحس بالذنب فاعلم أنه لا ذنب لك في شيء اقترفه غيرك ، وعاجلا أم آجلا سينال السارق جزاءه، ونحن سنستعيد أكثر من ذلك ، أعدك "

نم قليلا يا بني وأذق عينيك الراحة ثم قم إلى عملك، فأمامنا عمل كثير حتى نعيد جمع المبلغ.
فاستجاب الصغير لوالده ووضع رأسه على الوسادة فغرق في بحر النوم من شدة تعبه.

أما الرجل البائس فحمل نفسه إلى العمل، وباله مشغول بابنه الصبي وحاله ، بدأ عمله بغسل الأواني ويضع هذا فوق ذاك ، والأفكار تتزاحم عليه وتزيد من همه على ابنه الذي نسي نفسه في نومه، فلم يجد من يوقظه إلى العمل.

يضع الأب الأواني فوق بعضها البعض مثل الهواجس التي تضع نفسها فوق بعضها البعض في رأسه محاولا بشدة أن يتنكر لها ويتناساها .

حمل مجموعة الأواني بقوة واتجه بسرعة ليضعها في مكانها بعد أن نضّفها، فارتجف جسمه من شدة خوفه على ابنه ، فسقط كل ما كان بيده من أواني، فلم يدرك إلا طنين انكسارها في أذنيه.

ازداد هلعه كما ازداد هلع الصبي حين استيقظ على صوت المؤذن للظهر ، فأدرك أنه متأخر عن عمله وأنه مطرود لا محالة.

أسرع يركض إلى المحل الذي يعمل فيه ، وأسرع صاحب المطعم لأن ينفذ حكمه على الرجل البائس بأن يعمل عنده لمدة شهر بدون أجر، لدفع ثمن ما كسره من أواني ،فازداد هم الرجل البائس إلى همه وازداد هم الصبي حين حدث ما كان يتوقعه.
أخرجه النجار من محله يلومه على تأخره وعاقبه بأن يترك العمل لمدة شهر .

واجتمع هم العائلة الصغيرة عندما اجتمعت في مساء ذلك اليوم البائس ، هم ضياع النقود وهم ترك الصبي

للعمل بالرغم من رجائه ، وتغريم الأب الجديد بعمل شهر دون أجر.

اقترب الشتاء ، وما عاد باليد حيلة لجمع النقود وشراء ما يلزم للحماية من برد الشتاء القارس.

بدأ الصبي في البحث عن عمل ،وبدأت أمطار الشتاء تهطل وتزيد من حزن العائلة الصغيرة ، وعندما ييأس من البحث الطويل يرجع ليَطْمئِن على حال أخته التي لا تستطيع الخروج في هذا المطر الغزير.

ينتظران بحسرة أباهما علَّه يرجع بطعام يملأ بطنيهما الفارغين منذ الصباح ،فيأكلان وينسي كل منهما الآخر البرد الذي يمرون به، ويشجعون بعضهم على

تحمل قطرات المطر التي تنحدر من السقف على رؤوسهم .

وبين كل هذا وذاك يصبرون على خوف حدوث العاصفة القادمة من بعيد ، والتي يكاد صوتها المرعب يخطف أبصارهم ، تسرع وفاء إلى الاحتماء بين ذراعي أبيها باحثة عن الدفء.

يتأملون بأعينهم الخائفة كل ركن من أركان الكوخ المبني من جدران الطين والقش ، وتتجه نظراتهم في أغلب الأحيان إلى ذلك السقف المجموع من حطبٍ أكل منه الدهر وشبع.

ينتظرون في أي لحظة سقوطه على رؤوسهم ولا يستطيعون فعل شيء ، فالحال ليس بأحسن خارج

الكوخ ، وسط هذه العاصفة الهوجاء التي يُسْمَعُ عواؤها من بعيد وهي تلتهم كل ما تمر به من شجر أو حجر.

فزعو حينما اقترب عواؤها والتمسو بآذانهم دنوها من منزلهم المهيأ للسقوط في أية لحظة.

وكلما ازداد فزعهم منها اقتربت أكثر، حتى جعلت تضرب في أركان البيت ، وجعل السقف يهتز وينحني ، وقلوبهم قد انفطرت من هول العاصفة التي تغلبت على زاوية السقف بعد أن حاول التصدي لها ولكنها تغلبت عليه وخرَّ ساقطا على الأرض.

زحف الجميع إلى الزاوية الأخرى وقلوبهم ترتجف من الرعب.

أدركوا معنى الموت وهم بين أحشاء تلك العاصفة ، فلم يجد الأب الجديد مخرجا إلا أن ينادي بأعلى صوته "

الهي أنجنا من هول العاصفة "وظل يرجو الله ويتوسل إليه حتى ابتعدت عن المنزل كأنما أمرت في تلك اللحظة بتغيير مسارها فنفذت أمر ربها بطاعة ، وابتعد صوتها عن آذان العائلة الصغيرة التي نجت بفضل الله وحمدوا الله على ذلك ، وهدأت روعتهم وهمد رعبهم بعد أن كادت تنفطر قلوبهم لهول ما حدث .

ضم الأب الجديد وفاء ورامي ليطمئنهم ويهدئهم ، فنامو بحضنه غير ناعمين بغفوة .

وما إن حلَّ الصباح وأطلقت الشمس أشعتها على أرجاء المعمورة حتى هدأ كل ذلك الروع الذي كاد يميتهم هلعا ، وخيَّم هدوء وسكينة عامرة.

توجهوا إلى زاوية المنزل يتفقدون السقف الخشبي المرميِّ على الأرض ، ففقدوا الأمل في إصلاحه فلم يبق منه شيء يصلح .

obeikandl.com

وزاد بؤسهم، وأقبل سطر جديد لشقاء جديد يُضَمُّ إلى دفتر شقائهم ، فأدركوا أن ما عليهم إلا الصبر والدعاء لينفتح عليهم باب رزق جديد يحتمون به من برد الشتاء ويشبعون الرغيف الحاف.

توجه الأب الجديد للبحث عن عمل جديد بالليل يضيفه إلى عمله بالنهار، يحسن به القليل من الأوضاع ويصلح حال البيت.

وعاد الصبي الصغير إلى مسح الأحذية في الشوارع وحَمْلِ متاع الناس بعربته القديمة مقابل أجر قليل جدا ، أما أخته الصغيرة فتتقرب من هذا وذاك لتبيعهم ما جمعت من زهور، بعد أن فقدت كل أحلامها الصغيرة المليئة بالبراءة.

obeikandl.com

كانوا يتحملون ظروف معيشتهم بصبر ، متحدين قسوة البرد الشديد ، الذي لا يتركهم يهنأون بنومهم وتلك الفتحة التالفة من أثر العاصفة تدعو البرد للدخول والهجوم على جسمي اليتيمين الضعيفين.

يحاول رامي مقاومته وتضعف وفاء أمامه ، وفي هذا الحين يكون الأب تحت أسقف التعب الذي قضى على جسمه في هذا الليل البهيم ، يصارع أمواج الفقر والحاجة ويزحف بين ثنايا وطيات الأمل علَّه يجد مخرجا لِما ألَّم بالعائلة الصغيرة.

يقاسي من معاناته كما تقاسي الصغيرة آلام المرض الذي هجم عليها فجأة وألقى بها طريحة الفراش البالي الذي يرحب بالمرض ويزيد من هيجانه وثورته.

تتألم والبرد يزرع مخاريزه في جسدها الضعيف ، ترسل بآهة توخز أعصاب أخيها وتزيده انشغالا لباله عليها ، وترسل بأنَّة تُجرع قلبه البريء من كأس الألم وتعصر بصيحاتها عينيه المستسلمتين للدموع والبكاء.

ويحاول هو أن يعصر منديلا مبللا بالماء ليضعه على جبهة أخته ، آملا أن تنخفض درجة حرارتها.
يكرر ذلك مرارا ، وتتكرر على مسامعه خطوات أبيه المعلق من عرقوبه ، فيستقبله الصبي بدموع الحزن والألم ليزحف الأب الجديد على ركبتيه ويدنو من ابنته الصغيرة المتألمة.

قرب يديه المتجمدتان ليلتمس جبهتها المشتعلة فاشتعل فزعا ونادي بأعلى صوته " لا بد من طبيب " .

أجابه رامي " ومن أين لنا بالطبيب في هذا الوقت المتأخر من الليل"

ركض الأب الحائر وضرب الأخشاب المتجمعة التي تسمى بابا برجليه تائها حائرا، يسأل من يجد في الخارج عن طبيب ، يهرول بين زوايا الشارع وأطراف الطريق، يصيح وينادي " أريد طبيبا " ، ليجيبه صدى صوته الذي يذكره بأن الناس متضرعين بين فراشهم الدافئ ، ويتذكر بأن صوته أخفض بكثير من صوت المؤذن للفجر، الذي لم يستمع إليه غارق في بحر النوم ، مستلذ بأحلام الشتاء المنسي ، ناسيا كل ماهم غيره .. جعل الأب يطلق بصره بعد أن جلس جلسة المعاني على ركبتيه داعيا رب العباد: " الهي أدعوك أن تفرج همي، وتصلح حالي، وترزقني رزقا لم أحتسبه".

وبينما هو يتضرع إلى خالقه ويطلب رحمته ، أحس بيد على كتفه يردد صاحبها : " يا رجل ما حاجتك ؟ ولِم جلوسك في هذا المكان الذي لا يرجو منه شخص رجاء " .

فقال في نفسه : " ولكني رجوت فيه الرجاء وكل الرجاء " ، ثم خاطبه واقفا : " أريد طبيبا ، ابنتي مريضة جدا ، وليس لي نقود لأدفع تكاليف علاجها".

طمأنه الرجل قائلا : " أعرف طبيبا قريبا من هنا ، يحب مساعدة المساكين ، ودعاء المحتاجين ، لا يطلب أجرا من المرضى إلا من استطاع دفع التكاليف ، يحب الناس ويعين الضعيف ، هيَّا بنا نتوجه إليه ونحضره ليصف العلاج لابنتك".

obeikandl.com

رفع الأب طرفه إلى السماء شاكرا ربَّه ، واتجه إلى الطبيب مسرعا.

دلَّه الرجل على عيادته فوجداها مفتوحة إلى هذا الوقت المتأخر ، دخلا إليه وطلبا منه المعونة ، فاستجاب الطبيب الكريم على الفور، وحمل عدّته إلى منزل الحائر المعلق من عرقوبه.

دخله بهيبة وجعل يلتمس حرارة الطفلة ويفحصها حينا ثم يطلق بصره في أرجاء الغرفة المهدمة، يتألم لحال هؤلاء المساكين ، ويزداد ألمه عندما يرى حال هذه الطفلة المسكينة.

يقلب بين حقيبة عدته التي يأخذ منها هذه تارة ويأخذ الأخرى تارة ، وتسقط منه بعضها على أرجاء أرض

الكوخ وهو يتفحصها متناسيا عدته التي ظهرت منها ساعة قديمة، جعلت الأب يعوم في بحر الماضي ويتذكر أيام الدراسة ، يتذكر أيَّام نجاحه، تذكر هدية أبيه المرحوم له، تلك الساعة التي تركها في درج مكتبه حين سافر، وترك معها كل ذكرياته وأيامه.

وفي ذلك الوقت أعلن الطبيب: " يجب أخذها إلى المستشفى حالا ، في مثل هذه الظروف التي تعيشها لن تنال ابنتك العافية . هناك سيتوفر لها كل الأجواء التي تساعدها على الشفاء وتتغذى جيدا وتبتعد عن هذا الحال المزري ".

وتم نقلها في الحين لتتلقى العلاج والعناية.

تحمل الطبيب كل التكاليف ، وفَرّ لها كل ما تحتاجه من أدوية وعناية ، فبدأت الصغيرة تتعافى وتسترد صحتها بعد عناية الطبيب الحنون.

تلقت العائلة الصغيرة حنانا كبيرا من ذلك الطبيب الذي ما إن أنهى مهمته واطمأن على الصغيرة حتى حمل نفسه متجها إلى باب المستشفى.

تقرب منه الأب الجديد قائلا له: " مازلت حنونا كما تركتك يا محمد تحب الناس ، تفرح لفرحهم وتحزن لحزنهم ، تجعل نصيبك من وقتك وجهدك من أجل خدمة من حولك ، ما أسعدني بك يا أخي" .
كان الطبيب يستمع بصمت وحيرة إلى الرجل المسكين ثم أدار رأسه وتلمس بعينيه ملامح الرجل البائس المختفية بين أحضان الشيخوخة ، دارت للحظة سلسلة

الأحداث المنسية ، أخرج الطبيب من جيبه الساعة القديمة التي تركها أخوه .
أدرك أن الذي يقف بجانبه الآن هو أخوه.

جذبه بقوة إلى صدره قائلا : " انك لأنت أخي ابن أمي وأبي ، أين اختفيت كل هذا الزمن وتركتني أداري الوحدة ، وأداوي الحياة ، أبحث عنك إلى أن فقدت الأمل ، تعال يا أخي ، ضمني إليك " .

نظر الولدان الصغيران إلى أبيهما الجديد الذي ساقته فرحته إلى أخيه يتقلب بين أحضانه ، وينثر كل الدموع التي حبسها عمرا طويلا.
جلس وأخوه داخل غرفة المستشفى بركن من أركانه ، يتبادلان حكايا الزمن ، ويفرغان شوقهما الذي اختبأ

طويلا بين ضلوع قلبيهما ، ويلقيان بألوان الفرحة التي لونت عيون الصغيرين ،تذكرا للحظة بأنه سيكون لهما عم جديد ، فانطلقا إليه ملقين وراءهم حياتهم البائسة .

تقربا إليه ليعانقانه ويشاركانهما الحديث العابر ويفرحان لخبر عمهما الجديد:

" أخي أتعيش أنت في ذلك الكوخ وأبناؤك ،وأتنعم برغد العيش وأولادي ،والله بيتي هو بيتك ، وأولادك هم من بين أولادي يلبسون أحسن اللباس ويأكلون أشهى الأكل ، ولا أقبل أن يعيش أبناء أخي في حالة كهذه ، أبدا وقد رزقني الله وأوسع عليَّ والحمد لله.

رد الأب الجديد بابتسامة خفيفة على شفتيه : " على الرحب والسعة يا أخي يا من أعدت إليَّ ابتسامة أمي

وأبي ولمست من طيب كلامك حنانهما وعطفهما ، رحمهما الله وجعلنا خير خلف لخير سلف " ..

تناقلت الفرحة بين العائلة الصغيرة وارتسمت قبلات الصغيرين على وجه عمهما الجديد ، فكان يخاطبهما ضاحكا ويبشرهما بالحياة الجديدة.

وفي هذا الوقت ناجي الرجل البائس الاهه قائلا: "ربّاه ،حمدا لك على نعمك تستجيب لدعائي ، وتفرج كربتي ، والله أنت لنا أرحم من الأم الحنون بولدها. سبحانك يا أرحم الراحمين."

ينظر العم محمد إلى أخيه ويسأله :" ألا تريد أن تخبرني عن قصتك ، متى تزوجت وأنجبت هؤلاء الأولاد الطيبين" .

فأجابه :" لم أتزوج وليس لدّي أولاد من صلبي".

فسأله الأخ: وما أنت لهؤلاء إذن ، يجري الصغيران ليرتميا في حضن أبيهما فرحين.

فقال الرجل: " إنما أنا لهؤلاء الأب الجديد " .

****

obeikandl.com

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " **أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين وأشار بأصبعيه يعني السبابة والوسطى** "

قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح

رواه الترمذي

obeikandl.com

obeikandl.com